باعتباره العصر الذهبي لتاريخ الاسلام بالمنطقة. [٣]

أما خلال القرنين [١٧-١٨م]، فقد انصب اهتمام المؤرخين على السواحل الافريقية. وتعرض تاريخ المجتمعات داخل القارة لبعض الاهمال الناتج عن شح المصادر بعد «توقف سلسلة الكتابات التاريخية التي ظهرت بالمنطقة خلال العهد الوسيط وانتقال مركز الضوء إلى المناطق الساحلية التي أصبحت مجالا للنشاطات الاوروبية». [٤].

وقد حاول البحاثة المعاصرون تلافي هذا الاهمال، فاتجهوا إلى دراسة الملامح العامة للمجتمع الافريقي [٥] خلال هذه الفترة وتتبع مراحل الدعوة الاسلامية والتعريف بأعلامها. [٦].

ومع ذلك فإن الدور الاجتماعي للاسلام موضوع لايزال، حسب رأينا، في حاجة إلى بيان:

- ماهي أسس علاقة الاسلام والمجتمع في إفريقيا الغربية؟

- وبعبارة أوضح: ماذا كانت العلاقة - خلال الفترة المدروسة - بين تطور الدعوة الاسلامية. [من حيث مجال الانتشار وتحولات الخطاب] من جهة، وحركة المجتمعات في منطقة التقاء الاقليمين الساحلي والسوداني بالغرب الافريقي، من جهة أخرى؟ من المهم - للاجابة عن مثل هذه الاسئلة - أن نتعرف على مراحل وخصائص انتشار الاسلام بالمنطقة.

١) انتشار الاسلام بافريقيا الغربية حتى القرن ١٧م

(١-١) المراحل:

امتازت مراحل انتشار الاسلام في منطقة الغرب الافريقي بتعاقب فترات من المد والجزر

(١.١.١):

وارتبطت أولى فترات المد الاسلامي ببروز الدور التجاري لامبراطورية غانا [ق١٠ - ق١٤] وبنشأة الدولة المرابطية.

ويعتبر ظهور دولة «الصوصو» [٧] على أنقاض امبراطورية غانا [ق١٢] بداية فترة ضعف وتراجع للدعوة الاسلامية.

---

١ - هناك نماذج كثيرة للتفسير التقليدي لانتشار الاسلام في افريقيا الغربية، بناء على اعتبارات تيولوجية. ومن أشهر الامثلة على هذه الرؤية:
حسن (حسن ابراهيم): انتشار الاسلام في افريقيا الغربية. ط، ٢ / مكتبة النهضة المصرية / القاهرة / ١٩٦٣

٢ - هذا هوعنوان كتاب قيم للمستعرب الكبير (مونتاي)
Monteil (Vincent): l'Islam Noir, une religion à la conquête de l'Afrique, Paris seuil; 1980

٣ - نلاحظ التركيز على هذه الفترة في اغلب المؤلفات المخصصة لتاريخ الاسلام بالمنطقة. راجع مثلا:
Cuoq (Joseph): Histoire de l'Islamisation de l'Afrique de l'Ouest des origines au XVIe siècle. Paris, Geutner 1981.

٤ - Yves Person من مقدمته لكتاب:
Abitbol (Michel): Tombouctou et les Arma: de la conquête marocaine du Soudan nigérien 1591 à l'hégémonie de l'empire peul du Macina 1833 Paris. Maisonneuve et Larose, 1979, P. 7

٥ - راجع، كنموذج للدراسة التاريخية ذات الافق السوسيولوجي، بالاعتماد على الرواية الشفهية:
Cissoko (S. Mamadou): «Traits fondamentaux des sociétés au Soudan Occidental du XVIIIe s. au début du XIXe s.» in: Bulletin de l'IFAN, serie B, T. 31, No 1, Janvier 1969, PP. 1-30
وكنموذج للدراسة المتكاملة، انطلاقا من مقاربة متعددة الاختصاصات، راجع:
Coquery - Vidrovitch (C.) l'Afrique Noire, permanences et ruptures, Paris, Payot, 1985

٦ - راجع الهامش رقم ١، وأيضا:
Hiskett (Mervin): The development of Islam in west Africa - London and New York, Longman Group, ed, 1984

٧ - الصوصو: أحد الشعوب المكونة لامبراطور غانا. ثار «الصوصو» بزعامة (سومانكورو) واحتلوا عاصمة (غانا) للانتقام من حكامها الذين رضوا بالخضوع للمرابطين. عند ذلك فر المسلمون الى الشمال خوفا من بطش (سومانغورو) غير ان القائد (سنجاته كيتا) مؤسس امبراطورية مالي، قد استطاع ان يقضي على مطامح الصوصو في معركة

...) وبقيت هذه المناطق ... في عهد ازدهار امبراطورية مالي [ق١٢ - ق١٤م].

وكان القرن الخامس عشر عصر انحسار للمد الاسلامي كما يظهر من فرار الفقهاء التنبكتيين إلى «ولاتة» خوفا من بطش سني على [٤/ ١٤٦٥ - ١٤٩٢م] مؤسس امبراطورية السونغاي. وفى نفس الوقت كان البرتغاليون يبسطون سيطرتهم على السواحل الافريقية.

١ . ١ . ٣) غير أن استيلاء الاسكيا [٨] محمد [١٤٩٣-١٥٢٨]، على عرش السونغاي كان فاتحة عهد جديد امتاز بنهضة علمية غطى إشعاعها جل مناطق الغرب الافريقي طيلة القرن ١٦م].

* ولم يكن هدير مدافع «الباشا جؤذر» [٩] الذى احتل إقليم السونغاي باسم السعديين [١٥٩١] - مجرد إيذان بانتهاء حكم [الاسكيين]. بل كان يعنى كذلك انتهاء مرحلة كاملة من تاريخ انتشار الاسلام بالمنطقة، وبداية لمرحلة جديدة ستبرز ملامحها ابتداء من القرن ١٧م.

- ومن أبرز ملامح الفترة الجديدة اشتداد ضغط الاوروبيين على السواحل الافريقية وانتشار المجاعات والاوبئة داخل القارة.

وقد أثرت هذه الاوضاع المستجدة على مسار الدعوة الاسلامية وخصائصها:

١ . ٢) الخصائص:

١ . ٢ . ١) يظهر من تتبع مراحل انتشار الاسلام فى إفريقيا الغربية أن هذا الانتشار كان سلميا فى أغلب الاحيان. إذ لاتجد فيما أورد البكرى عن إسلام ملك «التكرور» [١٠] وأمير إقليم «مالى» [١١] إشارة إلى الاكراه. ولاتدل قصة إسلام أوائل ملوك الصونغاي [١٢]، وقصة إسلام ملك «جنى» [١٣] على أن هؤلاء الامراء دخلوا فى الاسلام خوفا من بطش الفاتحين.

١ . ٢ . ٢) غير أن هذه الروايات وغيرها تشير إلى ظاهرة أثارت فضول الباحثين. وهي أن الدعوة الاسلامية قد اجتذبت بشكل خاص صفوة المجتمع من الملوك والنبلاء وأعضاء الجهاز الاداري وسراة القوم من النبلاء والتجار.

٨ - الاسكيا محمد: هو محمد بن أبي بكر الطوري ت ١٥٣٠م. كان من ألمع القادة في جيش سني علي،استولي على الحكم بعد موت (سني): ١٤٩٢ -. اتخذ لقب (اسكيا) بدلاً من لقب (سنى) الذي كان يطلق على ملوك الاسرة السابقة. «اجتهد بإقامة ملة الاسلام، وإصلاح امور الانام، وصاحب العلماء واستفتاهم فيما يلزمه من امور الحل والعقد» (السعدي ص. ٧٢) عزله أبناؤه بعد أن كف بصره (١٥٢٨) استمر الحكم بيد أبنائه واحفاده (دولة الاسكيين) حتى سنة ١٥٩١م.

٩ - جؤذر: مملوك من أصل اسباني. تدرج في الوظائف العسكرية، بالجيش السعدي في عهد المنصور الذهبي (١٥٧٨ - ١٦٠٣م). عين قائدا لجيش الاندلسيين، قبل رفعه إلى رتبة باشا، وتكليفه بقيادة الحملة الضخمة التي جردها المنصور لاحتلال السونغاي. نجح في مهمته اثر معركة (تنديبي) الحاسمة (١٢ ابريل ١٥٩١). وافق على الصلح مع الاسكيا اسحاق، فعزله المنصور (٧ أغشت ١٥٩١).

(١٠) البكري (أبو عبيد): المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب

ترجمة وتحقيق: G.de Slane الجزائر، ١٨٥٧ ص. ١٧٢ (من النص العربي)

(١١) نفس المصدر، ص. ١٧٨

١٢ - السعدي (عبد الرحمن): تاريخ السودان ترجمة وتحقيق: «هوداس» وابنوه 1980 Maisonneuve Paris ص. ٣ (من النص العربي)

اما عامة السكان ـ لا سيما قاطني الارياف ـ فقد ظلوا على ما كانوا عليه من [illegible]

١ . ٢ . ٣) وهذا ما حدا ببعض الباحثين [١٤] إلى اعتبار الاسلام في هذه الفترة «جهازا إيديولوجيا للسلطة محصورا في دائرة الطبقات السائدة».

ويذهب باحث آخر [١٥] إلى أن الاسلام في هذه الفترة كان: «ديانة فئة مغلقة(Caste) تشكلها أقلية من تجار مرحلة ما قبل المركنتيلية. (. . .) تلعب دورا شبيها بالدور التجاري لليهود في أوروبا خلال العصور الوسطى».

ـ وبفعل التطورات التي ستعرفها المنطقة ابتداء من ق ١٧م ستتغير البنية التي طبعت العهد الافريقي الوسيط.

٢) إفريقيا الغربية في مستهل القرن ١٧م:

يعتبر النصف الاول من القرن السابع عشر، عهد تراجع للدعوة الاسلامية، وفترة صعبة في تاريخ المنطقة بشكل عام. فقد رسخت أقدام الاوروبيين على السواحل الاطلسية للقارة، ونشأت في الشريط المحاذي للسواحل وفي بعض الجيوب القارية ممالك جديدة. ويبدو أن تفسخ العلاقات الاقتصادية القائمة على التبادل التجاري عبر الصحراء، وحلول علاقات جديدة من التبعية تربط هذه الممالك بممثلي التجارة الاوروبية، قد أدى إلى تخلي الارستوقراطية الحاكمة عن الشعائر الاسلامية وظهور أرستوقراطيات جديدة تتبنى إيديولوجيا وثنية تستجيب أكثر لمتطلبات التجارة الاوروبية وضغوطها الاجتماعية.

٢ . ١) الضغط الاوربي ونتائجه الاجتماعية:

١ . ١ . ٢) بدأت الدول الاوربية الاطلسية مع بداية القرن ١٧م تنافس إسبانيا التي ورثت عرش البرتغال [١٥٧٨] وأصبحت الوريث الشرعي للمراكز البرتغالية المنتشرة على طول الساحل الاطلسي للقارة الافريقية. وكانت هولندا في طليعة الدول الاطلسية التي أخذت تسابق إسبانيا للسيطرة على المراكز البرتغالية في السواحل الافريقية. وظهر الانجليز كمنافس للهولنديين قبل أن يتدخل الفرنسيون كقوة صاعدة. وبذلك أصبحت السواحل الافريقية مسرحا للصراع بين القوى الاوربية. ومن الامثلة النموذجية لهذا الاصطراع تناوب الهولنديين والانجليز والفرنسيين على احتلال مركزي «آركين» [١٦] و«بورتنديك» [١٧].

فقد استولى الهولنديون على مركز «آركين» التجاري سنة ١٦٣٨م. وعندما طردهم منافسوهم الانجليز من هذه الجزيرة انسحبوا جنوبا حيث أسسوا «بورتنديك» وبعد أن أسس الفرنسيون مركز «سان لويس» التجاري عند مصب نهر «السنغال» [١٦٥٩م] استطاعوا انتزاع جزيرة «آركين» من الانجليز [١٦٦٦م] كما طردوا الهولنديين من «بورتنديك» [١٧٢١م].

هكذا كان الوجود الاوربي بإفريقيا ـ وحتى في مرحلته التجارية ـ عبارة عن صراع مستمر: صراع فيما بين الاوروبيين للسيطرة على المراكز التجارية وحماية الاحتكار؛ وصراع فيما بين الافارقة للحصول على الاسارى من أجل تموين النخاسة.

---

١٤ – Coquery Vidrovitch (C.) op.-cit., p. 104 .....

١٥ – سمير أمين، من مقدمته لكتاب:
Barry (Boubacar): Le royaume du Waalo: Le Sénegal avant la conquête, Paris, F. maspero, 1972; P. 29

١٦ – أركين: جزيرة على الساحل الاطلسي بين مدينتي نواذيبو ونواكشوط بموريتانيا (حاليا) اسس البرتغاليون في هذه الجزيرة أول مركز تجاري أوروبي بافريقيا الغربية (١٤٤٥). اشتد الصراع بين القوى الاوروبية بهدف السيطرة على هذه الجزيرة من نهاية القرن ١٦م حتى منتصف القرن ١٩م.

١٧ – بورتنديك: يقال ان اصل التسمية تحريف لعبارة تعني بالهولندية: ميناء هدى، نسبة الى هدي بن احمد بن دامان، زعيم «التارزة» خلال النصف الثاني من القرن ١٧م. دخل الانجليز ثم الفرنسيون في صراع مع الهولنديين للسيطرة على هذا المركز. انسحب الهولنديون من الصراع بموجب معاهدة (لاهاي) ١٧٢٧م. وظل

ولم تكن التجارة الاستعمارية مجرد تبادل غير متكافىء، كما يقول الاقتصاديون، وإنما كانت ـ قبل كل شيىء ـ اختراقا عنيفا للجسم الاجتماعي الافريقي.

٢ . ١ . ٢) ومما يزيد من حدة الطابع العنيف الذى تميزت به هذه التجارة اعتمادها الرقيق مادة أساسية فى المبادلات. وقد تضاعفت أعداد الارقاء المجلوبين عبر الاطلسي خلال القرنين [١٧ـ١٨م] حتى أطلق بعض الباحثين [١٨] على هذه الفترة إسم «عصر النخاسة».

وعصر النخاسة هو عصر إفراغ القارة الافريقية من خيرة منتجيها. فقد كان الاوربيون يستجلبون إلى السواحل مجموعات شابة ممن لديهم ما يكفى من اللياقة البدنية للصمود أمام عملية الانتقاء الصارمة التى يجريها الاوربيون لاختيار أقوى الافراد جسديا، لأنهم وحدهم القادرون على تحمل مشاق الترحيل فى ظروف قاسية باتجاه مزارع السكر فى العالم الجديد.

٢ . ١ . ٣) وبالاضافة إلى هذا الاستنزاف الديمغرافي كان من مضار النخاسة ما لاحظه المؤرخ [ج. س. كانال] «١٩» من أن:

«النشاط المنتج لم يعد يدر ربحا. ولذلك أصبح النشاط الاساسي المثمر هو الحرب، بكل ما تؤدى إليه من تخريب بشري ومادي. أصبح الجميع يحاربون بغية الحصول على العبيد. ولم يكن من النادر أن يتحول الصياد إلى فريسة، عندما يقع فى الاسر ويرغم على جر قيوده فى اتجاه الموانىء، عبر طرق ملأى بعظام الضحايا ممن وقعوا من قبل فى قبضة الصائد الذى أصبح فريسة. إنه جو من الخوف الدائم والحروب والغارات المستمرة المؤدية إلى البؤس والمجاعة».

ويرى بعض الباحثين [٢٠] أن الانحطاط الاقتصادي الذى تردت فيه المنطقة منذ القرن ١٧م كان «نتيجة مباشرة لانعدام الامن، مع أن الانحطاط الاقتصادي يؤدى بدوره إلى تدهور الحالة الامنية».

وانعكس هذا الانحطاط الاقتصادي المصحوب ـ ثقافيا ـ بغزو حضاري، على البنيات الاجتماعية. فقد لاحظ الباحث الافريقي سيسوقو [٢١] أن هذه الفترة قد اتسمت بإعادة تشكيل الهيكل الاجتماعي على أسس قبلية (Restructuration tribale) فظهرت قبائل جديدة وعادت إلى الظهور قبائل كانت قد اختفت فى عهد الامبراطوريات المركزية والعواصم التجارية.

وتضاءلت الاهمية النسبية لطبقة الاحرار[الطبقة المتوسطة]. ويرتبط هذاالتناقص بما لاحظه الرحالة الاوربيون[٢٢] من تزايد فى عدد العبيد، خلال القرن ١٨م. وبذلك أصبحت طبقتا العبيد والنبلاء وجها لوجه.

وأدى هذا الانحطاط العام إلى عجز المجتمع الافريقي عن إفراز طبقة حاكمة أو تخصيص أي فائض مادي أو معنوي لضمان سير الاجهزة والمؤسسات التى قد تقضى على الحكم حدا أدنى من الشرعية.

وبذلك أصبحت الزعامة السياسية والحظوة الاجتماعية من نصيب فئات عسكرية تتشكل من المحاربين المحترفين. فأصبح فى مقدور أي مغامر شجاع أن ينتزع السيادة والحظوة الاجتماعية، حتى ولو كان، طبقا للقيم السائدة، من أصل وضيع[٢٣].

---

١٨ – Barry (B): Le royaume du Waalo... op. cit. p. 87

١٩ – Suret - Canale (Jean): «Conséquences sociales et contexte de la traite négrière», Présence Africaine 2e trimestre, 1964, p. 142. cité par Barry (B) op. cit. p. 97

٢٠ – Cissoko (S.M.) op. cit. p. 8

٢١ – Ibid. p. 13

٢٢ – Mungo Park: Voyage dans l'interieur de l'Afrique. Paris, Maspero, 1982, p. 284

وتخصصت فئة «الشعراء المداحين» Les griots في إنتاج وبث هذا اللون من الادب الشفوي مقابل الحصول على مكافآت من المحاربين.

وقد شكلت هذه الفئات المحاربة كيانات سياسية دولوية امتازت بعدم الاستقرار مما ساهم في تفاقم ظاهرة التفكك السياسي الذى عانت منه المنطقة طيلة هذه الفترة.

٢ . ٢) التفكك السياسي:

ظهرت بوادر التفكك السياسي الهيكلي بمنطقة الغرب الافريقي خلال القرن ١٥م، عندما انفصلت مملكة [جلف] بشكل نهائي عن امبراطورية [مالى]. وتوطد هذا التفكك خلال القرن ١٦م بانفصال مملكة [الدنيانكى] فى [فوتاتورو] عن امبراطورية [السونغاي].

وخلال القرن ١٧م انتشرت الاضطرابات السياسية، بعد سقوط امبراطورية السونغاي (١٥٩١).

فقد شكل شعب [الخاسونكى] عند بداية هذا القرن دويلات متصارعة، تعيش على الحرب وتتقاسم منطقة أعالى نهر السنغال.

وظهر [البامبارا] كقوة جديدة فى المنطقة، وقد أسفر الصراع فيما بينهم عن تأسيس إمارتين وثنيتين، هما إمارة [سيغو] ١٧١٢م، وإمارة [كعرته] ١٧٥٤م.

وتشكلت فى بقية مناطق الغرب الافريقي دويلات ومشيخات قبلية أصغر حجما وأقل استقرارا.

ويمكن تسجيل جملة ملاحظات حول النزعة الانقسامية التى أفضت إلى هذا التفكك:

٢ . ٢ . ١) ـ لاتتوقف ديناميكية التفكك عند عملية الانفصال الاولى. فبعد انفصال إمارة [جلف] عن امبراطورية [مالى]، انقسمت دولة [جلف] نفسها إلى إمارات متصارعة. وتنطبق نفس الملاحظة على [الخاسونكى] و[البامبارا].

٢ . ٢ . ٢) ـ هناك علاقة ارتباطية بين موقع الامارات، من حيث القرب من السواحل الاطلسية، ومسارعتها إلى الانفصال عن جسم الدولة المركزية. والسبب فى ذلك هو ـ بالطبع ـ وجود المراكز التجارية الاوروبية بالقرب من السواحل.

٢ . ٢ . ٣) ـ اعتمدت كل هذه الامارات سياسيا على النزعة الانفصالية المحلية، ولم يظهر فى أي منها مشروع لتوحيد الغرب الافريقي، كما أن الحروب المستمرة بين هذه الامارات لم تكن ناتجة عن وجود مشاريع توحيدية أو توسعية، وإنما كانت فى الغالب حروبا موقتة تستهدف الحصول على الاسرى، من أجل بيعهم كعبيد.

وكانت أغلب هذه الامارات وثنية أو قريبة من الوثنية، بل إن بعضها كانت تعادى الاسلام، فى بعض الفترات على الاقل. وكانت كلها تتعاطى تجارة الرقيق مع الاوربيين بشكل مكثف.

ـ فهل تبيح لنا هذه الملاحظات أن نستنتج أن الاسلام كان إيديولوجية أصحاب النزعات السياسية التوحيدية المرتبطة بالتجارة الصحراوية فى حين أن الوثنية هي الاطار الفكري للحركات الانفصالية المرتبطة بالتجارة الاوربية؟

قبل الاجابة عن مثل هذا السؤال، ينبغى أن نتبين ملامح الدور الاجتماعي للاسلام وماطرأ عليه من تغيرات، خلال القرنين ـ موضوع الدراسة ـ..

٣) الدور الاجتماعي للاسلام خلال القرنين ١٧ و١٨م:

سبق أن استعرضنا مراحل انتشار الاسلام فى المنطقة حتى القرن ١٧م وأظهرنا علاقة الدعاة المسلمين فى هذه الفترة بأنظمة الحكم السودانية. ولاحظنا أن الاسلام كان محل اعتبار شديد عند جميع الاباطرة السودانيين، سواء كانوا مسلمين [مالى، السونغاى] أو غير مسلمين [غانا].

الافريقية، وبعد أن سقطت أخرى الامبراطوريات الاسلامية بالمنطقة، فالملاحظ أن الاسلام قد تغيرت وظيفته السياسية بحيث لم يعد الاطار الفكري لممارسة السلطة. ولذلك اتجه الزعماء المرتبطون بالنخاسة الاوروبية إلى إحياء القيم الوثنية لأنها كانت أكثر انسجاما مع الاوضاع الجديدة المتمثلة فى عسكرة السلطة واستفحال النخاسة.

وأخذ عامة السكان، ممن كانوا حتى هذه الفترة وثنيين أو قريبين من الوثنية، يتحولون عن تقاليدهم الدينية التى لم تعد تشكل ملاذا فكريا فى وجه هيمنة الانظمة السياسية الامبراطورية، كما كانت عليه الحال قبل القرن ١٧م. ولأن الاسلام أصبح «تعبيرا عن رد الفعل المقاوم»[٢٤]، فى وجه الانظمة المستبدة الجديدة، فقد أخذ عامة السكان يدخلون فى الاسلام أفواجا مستجيبين للدعاة الذين اتجهوا إلى عامة الناس بعد أن فقدوا وظيفتهم السياسية لدى الارستقراطية. وبذلك تحولت طبيعة الدور الاجتماعي للاسلام.

ولعل هذا التحول من إسلام القصور والمراكز الحضرية إلى إسلام شعبي ينتشر فى الارياف والصحارى، أهم ظاهرة عرفتها المنطقة فى هذه الفترة.

٣ . ١ .) إسلام الاطراف:

أظهرت التطورات الفكرية المرتبطة بأحداث القرنين [١٧-١٨م] أن المحنة التى تعرض لها علماء تنبكتو، إثر معارضتهم احتلال الجيش السعدي لبلدهم، لم تكن نكسة نهائية للحركة العلمية بإفريقيا الغربية، كما يرى بعض المؤرخين[٢٥] وربما لم تكن هذه الازمة إلا تعبيرا عنيفا عن الانتقال من مرحلة إلى أخرى فى التاريخ الثقافي للمنطقة. إنه الانتقال من مرحلة التحالف بين الحاكم والفقيه [حيث يبسط الثانى رداء الشرعية على الاول، مقابل كثير من الامتيازات التى يقدمها الحاكم للفقيه] إلى مرحلة جديدة. ومن معالم المرحلة الجديدة، استغناء الحاكمين عن تشريع سلطتهم أو استمدادهم الشرعية من مصادر غير إسلامية. وتنطبق هذه الملاحظة على الامارات الوثنية كما تنطبق على المشيخات القبلية فى الاوساط الاسلامية، حيث حلت اديولوجيا القوة وما يرتبط بها من قيم الفروسية محل مبدأ الشورى.

٣ . ١ . ١ .) وأخذ العلماء - فى ظل الاوضاع الجديدة - يتجهون إلى عامة الناس فى الارياف وفى الصحارى، ينشرون الثقافة الاسلامية ويحصلون مقابل ذلك على بعض الهدايا.

ولعل من أقدم مؤشرات هذا التوجه ما نجده فى ثنايا كتاب تاريخ السودان لمؤلفه الفقيه عبد الرحمن السعدي التنبكتي [١٥٩٦-١٦٥٥]. فقد رحل مؤلف هذا الكتاب مرات عديدة من موطنه الاصلي [مدينة تنبكتو] إلى القرى والارياف المجاورة يسرد كتاب الشفاء ويفسره فى رمضان [٢٦]، أو ليصلى على جنازة [٢٧]، أو يصلح بين متخاصمين [٢٨]. ومقابل هذه الخدمات الدينية والاجتماعية كان الفقيه السعدي يحصل على بعض «الهدايا» وأغلبها من الحبوب أو الماشية.

ونحن نميل إلى أن هذه الظاهرة وليدة القرن ١٧م. ومع أن السعدي من أوائل الفقهاء الذين انتقلوا من المدينة إلى الريف، فإن هذه الهجرة لم تقتصر عليه. إذ بدأت حركة انتقال عامة من المدن إلى الارياف والصحارى. ويحفظ لنا تاريخ المنطقة خلال القرنين [١٧-١٨م] أسماء كثير من الشخصيات والاسر العلمية التى غادرت المراكز الحضرية وانتقلت إلى الاطراف [٢٩].

---

٢٤ - سمير أمين: المرجع السابق، ص. ١٨

٢٥ - Cissoko (S.M.): Tombouctou et l'empire soghaï. Dakar, NEA, 1975, passim

٢٦ - السعدي: مصدر سبق ذكره، ص، ٢٦٦ (من النص العربي)

٢٧ - نفس المصدر، ص. ٢٦٧

٢٨ - نفسه، ص. ٢٦٠

٢٩ - نلاحظ، مثلا، أن أغلب المجموعات التي تتعاطى العلم والتعلم في الوسط الشنقيطي (قبائل الزوأيا) تصر على أن اجدادها قد هاجروا من ... ن محددة. ومن الصعب التأكد من صحة كل هذه الادعاءات، لكن يبدو على الأقل ...

الارياف. وكان فقهاء القرى عندما يزورون مدينة مثل تنبكتو ياسفون لما اصاعوا من اعمارهم فى القرى والارياف. [٣٠].

أما بعد القرن ١٧م فقد أخذت الحركة اتجاها معاكسا يرمز للتحولات الجديدة.

٣. ١. ٢) ونتيجة لكل هذه التحولات، أصبحت مصالح العلماء أكثر ارتباطا بمصالح العامة من سكان الصحارى والارياف. وكان من نتائج ذلك انتشار الدراسات الاسلامية خارج المراكز الحضرية، حيث ازدهرت أساسا فى «موريتانيا وشمالي النيجر [الحاليتين] وأصبحت الاسر العلمية الصحراوية [الزوايا] تنشر العلم مما يجعلها المتحكمة فى أذهان المتعلمين من السودان [المستقرين]. .» [٣١].

وسيكون هذا الانتقال تدريجيا من المراكز الحضرية الجنوبية الشرقية [تنبكتو ـ ولاتة] إلى المراكز الشمالية الغربية [«وادان»، «شنقيط»، «تيشيت»]. كما سيتنامى الازدهار الثقافي فى البوادى بشكل متدرج من «أزواد» إلى «القبلة» وأرياف حوض نهر السنغال، فى حركة انتقال بطيء لمركز الثقل الاقتصادي والسياسي من «موانىء» الساحل الصحراوى إلى موانىء الساحل الاطلسي.

ولعب العلماء الصحراويون دورا حاسما فى عملية انتقال المعارف من المراكز القديمة إلى مجالها الجديد.

وبدلا من المدارس القديمة التى كانت تحتضنها المساجد الجامعة فى الحواضر، مثل مسجد سنكرى فى «تنبكتو» ومساجد «ولاتة»، أقبل الصحراويون على تأسيس مدارس متنقلة عرفت باسم «المحاضر». ويفد الطلاب على هذه المدارس من مناطق نائية نسبيا، ولهذا يسمون «تلاميذ الغربة»، وهم يحلون ويظعنون مع الحي البدوي الذى يوجد فيه شيخ «محضرتهم» دون أن تتعطل دراستهم.

وقد أثارت مؤسسة المحضرة اهتمام الباحثين [٣٢]، ومع ذلك فمازال من الضرورى استكمال البحث حول الشروط الاقتصادية والاجتماعية لنشأة هذه المؤسسة، مع التنبيه إلى العلاقة بين ظهور هذه «المحضرة» وما سبق أن أشرنا إليه من انتقال مركز الثقل الاقتصادي والاجتماعي من المراكز الحضرية الصحراوية إلى السواحل الاطلسية وما يتاخمها من أرياف وصحارى.

ولم يكن هذا الانتقال سريعا ولا فجائيا. ويعود ذلك إلى ظروف التنافس بين التجارتين الاطلسية والصحراوية. إذ لم يتخذ هذا الصراع شكلا صداميا مستمرا، بل كانت هناك علاقات «تكامل وتواصل وتخصص لعبت دورا لايستهان به فى عملية الانتقال من سيطرة التبادل عبر الصحراء إلى هيمنة التجارة الاطلسية وذلك إلى جانب علاقات المجابهة والتنافس»[٣٣]. وهذا ما سمح لبعض المناطق القريبة من السواحل الاطلسية ومن محاور التجارة الصحراوية في نفس الوقت أن تلعب أدوارا مزدوجة، مكنتها من الاستفادة من هاتين المنظومتين الاقتصاديتين الاجتماعيتين [منظومة التجارة الصحراوية ومنظومة التجارة الاطلسية.] وبذلك حصلت هذه المناطق ـ رغم شح طبيعتها وهشاشة مؤسساتها ـ على الفائض الكافى لاستقبال النخب المتعلمة التى فقدت مكانتها فى المدن التجارية القديمة، فاستكملت بذلك الشروط المادية والبشرية للنهوض الثقافي. وظهرت «المحضرة» كاستمرار للمؤسسات العلمية القديمة واستجابة مؤسسية للاوضاع المستجدة، فى نفس الوقت.

---

٣٠ – يذكر السعدي (تاريخ السودان، ص، ٦١) ان الفقيه صالح محمد تعلم «ارتحل من «جنى» الى «تنبكتو» وتوطن فيها الى ان توفى. وسبب ارتحاله انه صور مسألة من مسائل الفقه في مدرسته (...) وهناك في طلبته من (سبق ان) ارتحل الى «تنبكتو» بعدما قرأ ما قرأ، ثم رجع الى «جنى» فقال: صورة المسألة ليست كذلك على ما سمعت من الفقهاء في تنبكت فقال الشيخ: وما هي؟ قال: (الطالب): كذا وكذا... قال: (الشيخ): ضيعنا عمرنا باطلا فمن ذلك ارتحاله الى تنبكت».

٣١ Coquery Vidrovitch, op. cit, p. 70

٣٢ – من أهم ما نشر، حتى الآن، حول ظاهر «المحضرة» كتاب الخليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة والرباط، عرض للحياة العلمية والاشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم)، ١٩٨٧

٣٣ – Ould Cheikh (Abdel Wedoud): Nomadisme, Islam et pouvoir politique dans la société maure précoloniale (XIe - XIXe s.), essai sur quelques aspects du tribalisme, Thèse de sociologie, Paris I, T. III, p. 583

المستوى، نشوء تيار يتجاوز الاطار الفقهي التقليدي، ويمكن أن نسمى هذا الاتجاه بالاسلام «الشعبي» أو الاسلام «الصوفي» مع أنه لم ينتظم فى سلك الطرق الصوفية إلا فى فترة متأخرة نسبيا.

ومن أوائل من عبروا عن هذا التوجه الفقيه محمد بن محمد بن علي بن موسى التنبكتي[٣٤]. وقد نزع هذا الفقيه عمامة العلماء عن رأسه ولذلك لقب «محمد عريان الرأس» وانقطع عن التعلم والتعليم رغم أنه درس على أهم فقهاء تنبكتو فى عصره. وقد أقبل العامة على هذا «الولي» يلتمسون بركاته. أما الفقهاء فكانوا ينقمون عليه أشياء من بينها امتناعه عن حضور صلاة الجمعة، وعندما بلغه ذلك رد على من بلغه: قل للذى يزعم عدم إتيانى الجمعة من أدراه أن لايكون سبقه إليها الذى لايأتيها؟ [٣٥]. لذلك اعتبر الشيخ [محمد عريان الرأس] من «أرباب القلوب الذين ينظرون بنورالله»[٣٦]

وغير بعيد من هذه الفترة [٢/ ١ق١٧]، ظهر بمدينة [أطار] الناشئة داعية يسمى محمد بن أحمد بن حسين السمسدي، وعرف بين قومه بلقب [الامام محمد المجذوب] [٣٧]، وأعلن أنه التقى بالقاضى محمد بن الحسن المرادى الحضرمى [٣٨] [. . .] ورغم القرون الاربعة التى تفصل بين الرجلين، فإن الكثير من الاتباع قد صدقوا هذه الحكاية باعتبارها كرامة خص بها هذا [الشيخ الصالح الامي]، وذكروا أن الحضرمي كان [يأتيه بكيفية لاتدرك ويفيض عليه من العلوم أسرارا ربانية لدنية، سعد بها من سعد وشقي بها من شقي بجحدها، فتنتفخ يده ويأمرها الله بالكتابة فتكتب ما لاعلم له به حتى جمع من ذلك ستة أجزاء]، [٣٩]. وسرعان ما انبرى الفقهاء للرد على المجذوب، وكان من أبرز معارضيه الفقيه محمد بن المختار بن الاعمش الشنقيطي، [٤٠] وفقهاء آخرون منهم قضاة المدن الرئيسية فى آدرار [وادان ـ أوجفت ـ أطار]. ورغم هذه المعارضة القوية فقد كثر مريدو [الامام المجذوب] فى منطقة [الباطن] بإقليم آدرار، لاسيما فى مدينة أطار.

---

٣٤ – هو الفقيه ابو عبد الله محمد بن على بن موسى الملقب «عريان الرأس» (ت. ١٠٢٧هـ / ١٦١٦م).
«كان صاحب كرامات وأحوال، يزوره الناس من كل فج، فى كل الساعات» (السعدي، ص. ٥٢).
ربما كان رائد النزعة الباطنية التي ستنتشر في المنطقة بدءا من هذه الفترة.

٣٥ – السعدي، مصدر سابق، ص. ٥٥

٣٦ – نفس المصدر، ص. ١٥

٣٧ – هو محمد بن احمد بن حسين الشمسدي (ت. ١٠٩٨ هـ / ١٦٨٧م) ظهر في مدينة «أطار». كان صاحب أحوال وشطحات ولذلك لقب المجذوب. أعلن في قومه أنه اصبح يلتقي بأبي بكر الحضرمي بصورة خارقة للعادة. وأن الامام الحضرمي اعطاه أوراده وكلفه ببثها في الناس، وأنه أملى عليه تعاليمه فدونتها يد محمد المجذوب بن احمد بن الحسين الجاهلة بالكتابة جبرا من الله» واظهر هذه التعاليم في شكل كتاب سماه كتاب المنة. ولان المجذوب اصبح خليفة الامام الحضرمي، فقد لقب هو نفسه بالامام المجذوب. حج سنة (١٠٨٤ هـ / ١٦٧٣م) وعاد بأحجار من مكة المكرمة وضعها في أساس «مسجد أطار» أثارت دعوته الباطنية ذات النبرة الشيعية معارضة الفقهاء داخل «أطار» وخارجها. وكان من اشهر معارضيه الفقيه محمد بن المختار بن الأعمش الشنقيطي.

٣٨ – هو ابوبكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي (ت. ٤٨٩ هـ / ١٠٩٤م). فقيه، متكلم ومنظر سياسي. نشأ في مدينة القيروان، واستكمل تعليمه في الاندلس لقي الامير المرابطي أبابكر بن عمر اللمتوني في مدينة اغمات، فصحبه الى صحراء الملثمين. وبذلك اصبح الحضرمي قاضي الدولة المرابطية في الصحراء، والمستشار المسموع لامبرها ابى بكر. فكأنه خلف ابن ياسين. توفي مقتولا في مدينة «آزوكي» قرب مدينة «أطار» الحالية من مؤلفاته: كتاب السياسة أو: الإشارة الى أدب الامارة، الدار البيضاء، دار النجاح، ١٩٨١

٣٩ – من المقدمة التي وضعها عبد الله بن احمد الشمسدي (الملقب بانس) وهو ناسخ كتاب المنة ومحققه. (بداية المجلد الاول من المخطوط)، وتوجد هذه النسخة بحوزة السيد: السني بن عبداوه، صحفي بالاذاعة الوطنية، نواكشوط.

٤٠ – محمد بن المختار بن الاعمش (١٠٣٦ هـ / ١٦٢٥م – ١١٠٧ هـ / ١٦٩٦م). اخذ عن اشهر معاصريه من العلماء في «شنقيط» «ودان» «وولاته» كان عليه مدار التدريس والفتيا في مدينة شنقيط. ألف مؤلفات كثيرة في الفقه وعلم العقائد والنحو والفلك، وغيرها. وهو «أول من أجاد من أهل تلك البلاد في تصنيف النوازل» (احمد بن الامين: الوسيط. ط. ٤، ص. ٥٧٨). عارض الدعوات الباطنية، مثل دعوة المجذوب ودعوة ناصر الدين، متشبثا بالمنزع الفقهي التقليدي الصارم.

الشمشوى]، [٤١]. وتلقب هذا الداعية بعدة ألقاب اشتهر منها بلقب [الامام ناصر الدين]، وقد أظهر [الفتح والخوارق] فأقبل عليه الناس يبايعونه إماما بينما عارضه الزعماء السياسيون وبعض أكابر الفقهاء فى عصره مثل الفقيه عبد الله بن أبى المختار البوحسنى، [٤٢] وابن الاعمش العلوي الشنقيطي، الذى سبق أن أشرنا إلى موقفه من [الامام المجذوب].

غير أن إقبال المريدين والاتباع على دعوة [ناصر الدين] كان من الاهمية بحيث مكن هذا الاخير من إعلان الجهاد ضد خصومه، وبذلك أصبحت هذه الدعوة حركة سياسية شعبية، كان للاسلام دور كبير فى تأطيرها:

٣ . ٢ .) دور الاسلام فى تأطير الحركات الشعبية:

إن التطورات التى تحدثنا عنها فى الفقرة السابقة [٣ . ١ .] كانت استجابة عفوية للتحولات التى عرفتها المنطقة ابتداء من نهاية القرن ١٦م. أما رد الفعل الجماهيرى المنظم فلم يبدأ إلا عند منتصف القرن ١٧م وفى حدود هذا التاريخ تطورت حركة [ناصر الدين] من دعوة دينية إلى حركة سياسية.

٣ . ٢ . ١ .) وقد بويع زعيم هذه الحركة من قبل عامة الناس فى منطقة [القبلة] بالجنوب الغربي لبلاد شنقيط. «ولما بويع اشرأبت الناس إليه كلهم من مغفري [٤٣]، ورزكانى، [٤٤] وازناكي، [٤٥]، وسوداني وزاوى، [٤٦]».

وحاول زعيم هذه الحركة بعد أن بويع بالامامة ـ أن يقيم دولة تحتذى النموذج الاسلامي التقليدي، فاتخذ الوزراء والقضاة وسعاة الزكاة وأرسل الرسل الى ملوك السودان يحضهم على التوبة، [٤٧]، وعندما رفضوا دعوته، توجه إلى عامة السودانيين محرضا على الثورة.

ويبدو أن الاوضاع فى الممالك السودانية كانت قد نضجت لتقبل داعى الثورة. فبادر اتباع الحركة فى «فوته» و«شمامه» و«جلف» و«اسنغان»، الى التمرد استجابة لنداء ناصر الدين. وعند نجاح الثورات كان ناصر الدين يعزل الملوك ويعين خلفاء لهم من بنى جلدتهم.

واستشعر الفرنسيون المرابطون فى مركز «سان لويس» خطورة هذه الحركة التى يدعو زعيمها إلى الامتناع عن بيع المسلمين إلى النصارى كرقيق [٤٨].

---

٤١ – هو أويك (أبوبكر) بن أبهم الشمشوي الديماني ت. ١٠٨٥ هـ / ١٦٧٣م).
اشتهر أمره بعد حادثة «الكشف» اذ قال مخبرا عن نفسه،: «كوشف لي عن أهل الجنة وأهل النار وأحوال الناس في البرزخ وعرصات الاخرة». (اليدالي: أمر الولي ناصر الدين، مخطوط) اخذ يعظ الناس ويناظر العلماء فارتفع صيته وصار له اتباع، ولما كثر تابعوه اتخذ لنفسه لقب الامام ناصر الدين، ودعا للجهاد ضد وثني السودان وعصاة البيضان. عارضه زعماء «المغافرة» وبعض كبار الفقهاء. حققت الحركة في عهده انتصارات حاسمة، حيث سيطرت على الضفة اليسرى للنهر. وكان مقتله خسارة لم يستطع خلفاؤه تعويضها.

٤٢ – هو أبو محمد الحاج عبد الله بن أبي المختار محمد بن احمد بن عيسى اليوحسني (عاش في النصف الثاني من ق. ١٧م). من اشهر علماء منطقة «القبلة» في عصره حج سنة ١٠٧٠ / ١٦٦٦م واتصل بعلماء مصر والحجاز فأجازوه واجاز هو محمد بن المختار بن الاعمش معارض حركة ناصر الدين وافتى بجواز قتال اتباعه، بناء على مقدمات فقهية تقليدية وربما كانت علاقاته الوطيدة مع ابن الاعمش عاملا يفسر – جزئيا – تشدد الاخير في مواجهة اتباع ناصر الدين وتكفيره إياهم.

٤٣ – المغفري: المنسوب الى «المغافرة» وهم ابناء (مغفر) بن (اودي) بن (حسان) من اكبر بطون بني حسان، وإليهم ينتسب مؤسسو الامارات العربية (الترارزة، البراكنة، وأولاد بحيى بن عثمان في آدرار) حاربت زعامتهم في «القبلة» حركة ناصر الدين.

٤٤ – الرزكاني: المنسوب الى (رزق) بن (اودي) بن (حسان). وأولاد رزق» من أقدم البطون المعقلية وصولا الى «القبلة». خضد المغافرة شوكتهم بعد معركة «انتيام» (١٠٤١ هـ/ ١٦٣٠م). انضمت فلولهم الى حركة ناصر الدين.

٤٥ – الزناكي: المنسوب الى (آزناكة). والتعريب الشائع لاسم هذه القبيلة هو «صنهاجة»

٤٦ – الزاوي: هو المنسوب – أو المنتسب – الى قبائل الزوايا ● وتشكل هذه الفئة الجناح المدني للارستقراطية في المجتمع البيضاني التقليدي. ينحصر نشاط هذه المجموعة في اكتساب وبث المعارف العربية الاسلامية ومزاولة التجارة والتنمية. ومن النادر أن يحمل (الزوايا) السلاح أو يشتركوا في الاعمال الحربية.

٤٧ – اليدالي (محمد بن المختار بن سعيد): أمر الوالي ناصر الدين، (مخطوط بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط تحت رقم ٢٧٣٧

٤٨ – Chambonneau (louis Moreaux de): Histoire du Toubenan ou changement des Roys et reforme de religion des nègres du Sénégal, Coste d'Afrique, depuis 1673 qui est son origine jusqu'en 1677 in: C.T.A. Ritchie: «Deux textes sur le Sénégal 1673 - 1677», Bulletin de l'IFAN, XXX, serie B, No 1, 1968, p. 338

[١٦٧٣م]، وكان للفرنسيين ضلع فى ذلك، لاسيما على الضفة اليسرى للنهر.

غير أن الهزيمة التى مني بها [ناصر الدين] وأتباعه لم تكن نهاية للجهاد الافريقي، بل كانت بداية لمرحلة جديدة امتازت بانتقال مركز الجهاد إلى داخل المناطق السودانية على الضفة اليسرى لنهر السنغال. وكانت حركة الائمة فى فوتا جلون، من أوائل هذه الحركات.

٣ . ٢ . ٢ .) واندلعت هذه الحركة فى العقد الاخير من القرن ١٧م فى منطقة [فوتا جلون] الجبلية [غينيا حاليا]. وتزعم قيادة الحركة مسلمو الفلان القادمون حديثا إلى المنطقة. وكان جهادهم فى البداية ضد مجموعة [البولى] وهم من وثنيى الفلان الذين استوطنوا منطقة [فوتا] قديما، وبعد إخضاع [البولى] بدأ الجهاد ضد [الجالونكى] وغيرهم من وثنيى [فوتاجلون].

وبايع المسلمون الفقيه ابراهيم الملقب [الفاكرموكو] [٤٨م]. إماما للجهاد، ووضعت أسس الدولة الناشئة على أساس من المبادىء الاسلامية، إذ كان يوجد على رأس هذه الحركة إمام المسلمين [أو «المامى» بلغة السكان المحليين]. ويساعد الامام الاكبر مجلس للشورى، [٤٩]، يتكون من تسعة أئمة وهؤلاء الائمة هم فى نفس الوقت حكام المقاطعات التسع التى تتشكل منها نواة إقليم الدولة [٥٠] ويجتمع هذا المجلس دوريا للنظر فى القضايا الهامة بما فى ذلك انتخاب [إمام المسلمين] فى حال شغور هذا المنصب.

ومن معالم السياسة الخارجية لهذه الدولة الاسلامية تمييزها الصارم بين «دار الاسلام» و«دار الحرب». ولذلك ارتبطت بعلاقات وثيقة مع الدول الاسلامية المجاورة مثل دولة [فوتاتورو] الاسلامية التى تمخضت عنها حركة الائمة فى [فوتاتورو] - ١٧٧٦م.

٣ . ٢ . ٣ .) ومنطقة [فوتاتورو] من أقدم المناطق الافريقية صلة بالاسلام، إذ يعود تاريخ الدعوة الاسلامية بهذه المنطقة إلى مرحلة ما نبل الحركة المرابطية [٥١].

غير أن تزحزح محاور التجارة الصحراوية باتجاه الشرق، وقرب منطقة [فوتاتورو] من الساحل الاطلسي الذى سيطر عليه البرتغاليون ابتداء من القرن ١٥م، عوامل مكنت أسرة «الدنيانكوبى» من سلخ هذا الاقليم عن امبراطورية [السونغاي] فى مستهل القرن ١٦م.

وقد نجحت حركة [ناصر الدين] - أول أمرها - فى طرد ملك [فوتاتورو] الوثني وإبداله بحاكم مسلم. وعند فشل حركة ناصر الدين عادت أسرة [الدنيانكوبى] إلى الحكم، بمساعدة أمراء [المغافرة] أعداء حركة ناصر الدين، وفى مقابل هذا التأييد أصبح الفلاحون فى «فوتاتورو» يدفعون أتاوة جديدة تسمى [مد الحرمة] بالاضافة إلى الاتاوات التقليدية التى تدفع للساتيكى [: ملك الدنيانكوبى].

ووقع ملوك [الدنيانكى] اتفاقيات جديدة مع ممثلى التجارة الاستعمارية في (سانلويس) استهدفت تصدير المزيد من العبيد وفتح المنطقة أمام التجارة الاستعمارية.

---

٤٨ - «م» - كرموكو: هو ابراهيم بن نوح الملقب (الفاكرموكو). مؤسس دولة (فوتاجلون) الاسلامية، وهو أول سلاطينها (١١٤٠هـ / ١٧٢٨م - ١١٦٣ هـ / ١٧٥١). حقق انتصارات حاسمة خلفه ابن اخيه (ابراهيم سوري). طالب انصار (الفاكرموكو) أن تكون الخلافة حكرا على أبنائه دون أبناء (ابراهيم سوري) فانقسم مسلمو (فوتاجلون) الى حزبين متناحرين، أنصار عائلة «الفاكرموكو»: حزب «الفايا» وانصار عائلة «ابراهيم سوري»: حزب «سوريا».

٤٩ - Sow (Alpha Ibrahima): Chroniques et recits du Fouta - Djalon, Paris, C.Clichkaieck, 1968, P. 233

٥٠ - Idem

وهكذا تضافرت العوامل المذكورة لتدفع الثورة في [فوتاتورو] بقيادة جموعة «التوروبيين» [٥٢] ورعيمها [سليمان بال] [٥٣] و[عبد القادر كن]. [٥٤]

وقد انضمت جماهير السكان إلى هذه الحركة في انتفاضة عارمة أطاحت بالنظام الملكي الدنيانكي ومكنت من ظهور نظام إسلامي جمهوري تحت رئاسة الامام [عبد القادر كن].

ونجحت حكومة الامام عبد القادر في إيقاف عمليات بيع العبيد إلى مركز [سان لويس] التجاري الفرنسي، بناء على معاهدة ١٧٧٩ بين الطرفين، كما حاول الامام أن يقضي على رواسب الوثنية في الممالك المجاورة لاسيما في [والو] و[كايور]. وقد أعلن ملك [والو] إسلامه وانضمامه إلى حركة الجهاد، حيث أمد الامام بجيش لمحاربة ـ كايور ـ. لكنه ما إن نشب القتال حتى أظهر ملك [والو] أن إسلامه كان خدعة وأمر جيشه بالانقضاض على الامير من الخلف، فوقع عبد القادر أسيرا. غير ان سكان إقليم [والو] رفضوا التراجع عن الاسلام بالرغم من أنهم أسلموا ـ في الظاهر ـ إرضاء لملكهم، كما رفضوا أن يمس عبد القادر بسوء، فأرغم ملك [والو] على إطلاق سراح الامام. وبذلك تحولت الهزيمة العسكرية إلى نصر سياسي.

وليس ما ذكرنا إلا مجرد أمثلة لاتتوخى الحصر. فقد ظهرت في كل المناطق الافريقية حركات فكرية تعتمد الاسلام مرجعا لها، وتستجيب بشكل أو باخر للتحولات الجديدة.

وتفاعلت الدعوة الاسلامية إيجابيا مع هذه التحولات، بحيث تغيرت الخصائص التي طبعت الظاهرة الاسلامية في الغرب الافريقي قبل القرن ١٧م.

فقد لاحظنا أن الثقافة الاسلامية ـ بعد القرن ١٧ ـ لم تعد محصورة في العواصم السياسية والمراكز التجارية، بل أصبح المجال المفضل لانتشارها وتفتقها هو الارياف والصحارى التي أصبحت تباهي المدن العريقة بمدارسها ونهضتها العلمية.

ولم تقتصر هذه الاستجابة على تغير مجال انتشار الاسلام ومؤسسات توصيله، بل جاوزت ذلك إلى محتوى الخطاب الاسلامي نفسه. فنشأ تيار ديني ذو نزعة باطنية يوازي ويعارض التيار الفقهي التقليدي.

وتحولت الوظيفة السياسية للخطاب الاسلامي، بعد انهيار الاسس الاقتصادية والاجتماعية للتحالف التاريخي بين الحاكم والفقيه. فأصبحت وظيفة ترقيع النصوص لتشريع الانظمة القائمة مهمة أصعب مما كانت، وهي ـ إلى ذلك ـ ضئيلة الفائدة.

وفي هذا السياق المتحول ظهر جيل من الدعاة يسعى إلى الجهاد بغية تحويل الواقع بدلا من الاجتهاد لتحوير النصوص، وبذلك تحولت الدعوة الاسلامية من جهاز إديولوجي يشرع الانظمة القائمة إلى إديولوجيا تحريضية تسعى إلى بعث المشروعية الاسلامية مجسدة في شخص «الامام». ولعل هذا هو المغزى الحقيقي للحركات الامامية.

---

٥٢ – التوروبي: مفردها «توروردو». مجموعة بولارية احترفت منذ القديم تعاطي ونشر التعاليم العربية الاسلامية، وامتنعت عن تعاطي «الحرف الفئوية المقتة» (الحدادة، الصيد النهري...). بعد ثورة ١٧٧٦ اصبح التوروبي يحتكرون حمل السلاح أيضا، وبذلك اصبحت زعامتهم شبه مطلقة، في مجتمع «البولار».

٥٣ – سليمان بال بن مالك (١٧٢٠م–١٧٧٦م) ينتمي الى اسرة علمية توروبية. تثقف في مدرسة «بير» في «كايور» وفي احياء «البيضان» بمنطقة «القبلة» ساح في منطقة افريقيا الغربية، واطلع بالخصوص على مؤسسات دولة الامامة في «فوتا جلون». وعندما عاد إلى وطنه، أخذ يدعو للتوبة والجهاد، فهاجمه سلاطين «الدنيانكي». كثر تابعوه فتمكن من تفجير الثورة قبيل وفاته (١٧٧٦م).

٥٤ – عبد القادر كن (١٧٢٩ – ١٨٠٧م): درس في «فوتا» وفي منطقة «القبلة» قبل ان ينتقل الى مدرسة «بير» في «كايور» حيث إلتقى بالشيخ سليمان بال وغيره ممن سيصبحون قادة الثورة التوروبية ضد الدنيانكي. شارك في التحضير للثورة التوروبية في «فوتا تورو» وكان من ابرز زعمائها. انتخب اماما للدولة الناشئة (١٧٧٦)، انتصر

اهم المصادر والمراجع

أ) بالعربية:

- البكري (أبو عبيد): **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب**
ترجمة وتحقيق G. de Slane ، الجزائر، ١٨٥٧

- حسن (حسن ابراهيم): **انتشار الاسلام في افريقيا الغربية**
الطبعة الثانية، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٣

- **الحضرمي** (ابوبكر محمد بن الحسن المرادي...): **كتاب السياسة أو: الاشارة الى أدب الامارة**
الدار البيضاء، دار النجاح، ١٩٨١

- السعدي (عبد الرحمن): **تاريخ السودان**، ترجمة وتحقيق «هوداس» و«بنوه».
Paris, A. Maisonneuve, 1980

- الشنقيطي (أحمد بن الامين): **الوسيط في تراجم ادباء شنقيط**، ط. ٤
نواكشوط والقاهرة، مؤسسة منير ومكتبة الخانجي، ١٩٨٩

- المجذوب (محمد بن احمد بن حسين الشمسدي): **كتاب المنة**، مخطوط. بحوزة السيد/ السني بن عبداوة، صحفي بالاذاعة، نواكشوط.

- النحوي (خليل): **بلاد شنقيط: المنارة والرباط، عرض للحياة العلمية والاشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)**، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٧

- ولد الحسن (احمد جمال): «حركة الامام ناصر الدين ومنزلتها من تاريخ الاسلام في غرب افريقيا»، مقال في مجلة **حوليات كلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة نواكشوط**، العدد الاول، ١٩٨٩، ص.ص: ٥-١٧

- ولد السعد (محمد المختار): **حرب «شربه» أو: أزمة القرن ١٧ في الجنوب الغربي الموريتاني** دراسة مرقونة، نواكشوط، ١٩٨٦ (يوجد حاليا قيد الطبع)

- اليدالي (محمد بن المختار بن سعيد): **امر الوفي ناصر الدين** (مخطوط)، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، رقم التسجيل ٢٧٣٧

Abitbol (Michel) : *Tombouctou et les Arma : de la Conquête du Soudan 1591 à l'hégémonie de l'empire peul du Macina 1833,* Paris, Maisonneuve et Larose, 1979 préface de Yves Person

Barry (Boubacar) : *Le royaume du Waalo : le Sénégal avant la conquête,* Paris, F. Maspero, 1972, préface de SAMIR AMIN.

Chambounneau (Louis Moreau de) *Histoire du Toubenan ou changement des Roys et reforme de religion des nègres du Sénégal, Coste d'Afrique, depuis 1673 qui est son origine jusqu'en 1677 in : Carson T.A. Ritchie* : «Deux textes sur le Sénégal 1673-1677», *Bulletin de l'IFAN,* XXX, série B, N° 1 1968,

Cissoko (Sokoné Mamadou) : - *«Traits fondamentaux des sociétés au Soudan Occidental du XVIII°s. au début du XIX°s.», Bulletin de l'IFAN,* série B, T.31, janvier 1969, pp. 1-30.
- *Tomboctou et l'empire songhai,* Dakar, Nouvelles Editions Africaines, 1975

Coquery - Vidrovitch *(C): l'Afrique Noire, permanences et ruptures,* Paris, Payot, 1985

Cuoq (Joseph) : *Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'Ouest, des origines au XVI°s.* Paris, Geutner, 1981.

Hiskett (Mervin) : *The development of Islam in West Africa,* London and New York, Longman Group ed, 1984.

Monteil (Vincent) : *l'Islam noir, une religion à la conquête de l'Afrique,* Paris, seuil, 1980.

Mungo-Park : *Voyage dans l'intérieur de l'Afrique,* Paris, Maspero, 1982

Ould-Cheikh (Abdel Wedoud) : *Nomadisme, Islam et pouvoir politique dans la société maure précoloniale (XI°-XIX°), essai sur quelques aspects du tribalisme,* Thèse de sociologie, Paris V, 3 tomes.

Ritchie (Carson T.A.) : (Voir supra : Chambonneau...)

Sow (Alpha Ibrahima) : *Chroniques et récits du Fouta-Djalon,* Paris, C. Cliencksieck, 1968.

Suret-Canale (Jean) : «Conséquences sociales et contexte de la traite négrière» *Présence Africaine,* 2ème trimestre, 1964 *(voir supra : Barry...).*